الرومانتيكية فى الأدب الصوفى

للأستاذ أحمد السيد عوض الله
المدرس بالأزهر

تكلمنا فى العدد السابق عن طبيعة الحزن عند كل من الصوفيين والرومانسيين وعرفنا أن مذهب الرومانسية الذى أحدث ضجة فى الأوساط الأدبية الغربية ورن صداه فى أجواء الآداب العربية . لم يكن جديدا فى أفكاره واتجاهاته وإنما هو امتداد لأفكار المتصوفين المسلمين الذين أطلقوا العنان لعواطفهم الرقيقة وإحساساتهم المرهفة وتوغلوا فى أعماق النفس الإنسانية يستخرجون دخائلها ، ويستشفون أسرارها ويحللون ما يتوارد عليها من معان رقيقة وانفعالات عميقة ، فأخرجوا للعالم تراثاً أدبياً ضخما كان ولا يزال ينبوعا يفيض بالحق والخير والجمال . . هذا إلى أن الصوفيين يطورون الانفعالات المنقضبة إلى نواحى الخير والرحمة كما بينا فى ظاهرة الحزن ، بينما الرومانس يلذ له أن يستمتع بهذه الانفعالات لأنه يراها متجاوبة مع روحه وقلبه .

وفى هذا المقال نتناول عاطفة الحب عند كل من الرومانسيين والصوفيين كما وعدنا . يذهب الرومانسيون إلى أن عاطفة الحب هى أسمى العواطف الإنسانية على الإطلاق لأنها مصدر الفضائل وينبوع المثل العليا . وبواسطتها يدرك الإنسان ماعليه من واجبات لأنها توقظ الضمير وتربى الوجدان .

والحب عندهم كما هو عند الصوفيين لاينبع من العقل بل هو حالة وجدانية وشعاع روحى يصقل النفس ويهذب المشاعر ولا يعترف بنظم أو قوانين. لذلك ينقم الرومانسيون على الزواج فى مجتمعهم لأنهم يرون أن الحب لايفرض أو يقيد بامرأة طول الحياة قد لا يكون القلب متجها إليها .

والحب عند القوم وإن كان إنسانيا إلا أن فيه عنصر الهيام والوجد . .

يقول دى فينى « إن السعادة لتغمر قلبى حين أنظر إلى مباهج الطبيعة فأرى فيها نظراتك الحالمة . .

لاتدعينى أيتها الحبيبة وحدى إن لمسة رقيقة من أصابعك الحلوة، كفيلة أن تخلق الأمن فى نفسى والنور فى قلبى» .

وهذه الحرقة فى الحب تذكرنا بقول جميل بثينه وهو من الشعراء

العذريين الذين يهتم بادبهم الصوفيون.

يقول :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى
لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا . وبألا استطيع وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضى
أو آخره لا نلتقى وأوائله

أو قول كثير عزة :

رهبان مدين والذين عهدتهم
يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها
خروا لعزة ركعا وسجودا

وواضح من هذا أن حب الرومانسيين عفيف وعنيف لا أثر فيه لشهوة أو غرض فهو شبيه بحب العذريين فى الأدب العربى ولهم قصص فى هذا المجال تشبه قصة « مجنون ليلى » وغيرها من قصص المحبين العذريين عندنا ، وقد دفعتهم لوعة الحب ونار الوجد إلى اليأس الذى يستهويهم وتسكن إليه قلوبهم .

يقول دى موسيه « أنا أحب ...
لا يهمنى أن يتحدث الناس عن حبى ...
يكفى أن أعرف أننى أحب ...
سأتحمل وحدى العذاب ...
وحبيب إلى نفسى هذا العذاب ...
إن حبى خال من الأمل ...
لكنه هو السعادة ...
يكفى أن أراها ...
لونى شاحب من الحب ، وأنا سعيد
إننى أستمتع بنعيم العذاب فى الحب ...
فيض من دموع الحب على خدى
يشجينى ... لا أريد أن يجف معين
الحب ولا فيض الدموع ...

وهذا النص الملتهب سيطلعنا على تأثر الأدب الرومانس بالأدب الصوفى عند الكلام عن الحب الإلهى ، فالصوفيون هم أول من أثار البصائر عن هذه الالتهابات القلبية المحرقة فى حبهم ومناجاتهم وشوقهم وفنائهم ، ومن هنا ندرى أن الحب الرومانسى يستهدف تألق النفس وشفافيتها ، وتلألؤ الروح وتسامقها ، ومن هذا البريق اللامع من الأضواء تهفو النفس إلى الفضائل ، وتنزع إلى الخير ، ومن الحق أن نقرر هنا أن بعض الرومانسيين قد سما بالحب إلى أبعد من الناحية الإنسانية .

إذ يرى هذا الفريق أن الحب فى معناه الأصلى هو الجذب ، فكل المخلوقات ينجذب بعضها إلى بعض بهذه القوة من الحب .

والمخلوقات مجذوبة إلى الله بهذا الحب ... يقول فيكور هوجو : « الله وجهه نور ، ليس لله اسم سوى الحب تنطق الشمس حينما يخلو العالم من الحب ... كل الأشياء تنجذب بقوة الحب إلى الله ... الحب هو صنعة الله التى يرجع إليها الخلق والتقدير ، والإحياء والغرس والوجود والعدم »

(يتبع)